

أصوات اللغة عند سيبويه مراجعة وتفسير

(*)

.د

-

يعرض هذا البحث للدرس الصوتي عند سيبويه (ت ١٨٠هـ)، في باب الإدغام ضمن باب فرعي قدّم فيه المبادئ الرئيسة للدرس النظري للأصوات^(١). أما ما عدا ذلك من أبواب ومسائل فيها درس نظري أو تطبيقي

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، عالم الكتب، بيروت. ويقع باب الإدغام كاملاً بين الصفحة (٤٣١)، والصفحة (٤٨٥) من الجزء الرابع. ويضمّ هذا الباب أبواباً فرعية، وأولها الباب الذي خصّصه للدرس النظري، وهو «باب عدد الحروف العربية، ومخارجها، ومهموسها ومجهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها». ثم يعرض ثانيها، والأبواب الفرعية اللاحقة، وهي ستة أبواب لشرح أحوال الإدغام تطبيقاً. وقارن بطبعة بولاق (سنة ١٣١٧هـ)، ٢/٤٠٤ - ٤٣٠.

فسياً أخذ مكانه من هذا البحث كلما اقتضت الحاجة ذلك. وقد ذكر سيبويه لأجل فهم الإدغام ما يحتاج إليه من تعيين حروف العربية، وبيان مخارجها، وشرح مجهورها ومهموسها، وما يستكمل به درسها من الصفات. ومع أن هذا الباب الفرعي لا يمتد إلا على خمس صفحات ونصف، فإنه ضمّ مسائل رئيسة من مسائل الدراسة الصوتية التي أثرت في الدراسات اللاحقة، وكشفت عن أفكار عميقة وآراء مبتكرة. وقد عرض لدرس سيبويه الصوتي خلقاً كثيراً من الدارسين المحدثين عربياً ومستشرقين على اختلاف وجهاتهم ومنطلقات درسه، ممن سنعرض لبعضهم لاحقاً. غير أن المجال ما يزال قابلاً لإعادة النظر، وتفسير الغامض، وتوجيه ما اختلف فيه توجيهاً جديداً. على أنه يمكن للدارس أن يمرّ ببعض ما أورده سيبويه مروراً سريعاً لوضوحه وعدم الاختلاف فيه، نحو عدد حروف العربية، والحروف الفرعية المستحسنة، وغير المستحسنة، والإطباق والانفتاح، والشدة والرخاوة. لكنه مدعو إلى التدقيق في ترتيبه للمخارج، وجمعه الصحاح والعلل، أي «الصوامت والصوائت» على صعيد واحد، وحديثه عن الضاد الضعيفة، وعدم وضوح درسه للتوسط بين الشديد والرخو. أما مفهومه للجهر والهمس فهو لبّ المسائل المختلف فيها على امتداد العصور قديماً وحديثاً.

ويغلب على الظن أن سيبويه بحسب النصوص الواردة في كتابه، هو أول من قدّم تعريفاً اصطلاحياً للجهر والهمس، ووظف ذلك في باب الإدغام توظيفاً يدل على استيعاب وتمكّن. وليس بعيداً أن يكون قد أخذ ذلك من شيخه

الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) - وكتابه أصلاً ألف في علم الخليل - إذ يؤنس بذلك وجود إشارات إلى الخليل وتلاميذه في بعض النصوص^(٢). ويقود هذا إلى مسألة مهمّة طرأت أخيراً، وهي تأكد أصالة الدرس الصوتي لدى الخليل بعد شكوك رُمي بها كتابه «العين» عامة، وشكوك أخرى رمي بها درسه الصوتي خاصة^(٣). وليس لدى القدامى إضافات جدّية إلى ما ذكره سيبويه في تضاعيف درسه، وهو جملة رأيه ورأي شيوخه^(٤). بل إنَّ معظم هؤلاء اقتنعوا بتكرار عبارات

(٢) انظر ما نقله إبراهيم أنيس عن شرح السيرافي لكتاب سيبويه، في كتابه: الأصوات اللغوية، ط. رابعة، الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧١، ص ١٢١-١٢٢. وانظر ما نقله غانم قدوري الحمد عن معاني القرآن وإعرابه للزجاج، في كتابه: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود ببغداد ١٩٨٦، ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) انظر كتابي: أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، ط. ثانية، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٣. وتتلخص المسألة في اتجاهين: قديم يشكك في نسبة كتاب العين إلى الخليل لأسباب تتعلق بطريقة وصوله إلى العراق، وما يضمّه من أشياء منسوبة إلى زمن تأخر عن الخليل، أو ورود آراء لا يصحّ نقلها عن شيوخ البصرة. واتجاه حديث يزعم أنّ آراء الخليل عامة ليست له، إنما قبسها من الهنود وغيرهم. وهذا ما لم يثبت بحال. وقد انتهيت في كتابي السابق الذكر إلى أن الدرس الصوتي عند العرب هو للخليل أصالة، وأن ما اعترى كتابه من خلل في بعض المواضع لا يقدح في أنه للخليل، ولا سيما تلك النصوص المؤكدة كالمقدمة التي صدر بها كتابه والتي وثقها معظم القدامى، وأخذوا منها، أو اقتبسوا معظم ماورد فيها. وانظر بعض الاستنتاجات الخاطئة لدى إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية، ص ١١٢.

(٤) انظر ما جاء في كتاب المزهري للسيوطي، البايع الحلي بمصر، ١/ ٨٥ من أن سيبويه حامل علم الخليل، وأوثق الناس في الحكاية عنه، ولم يكن ليُخالف قوله، ولا ليناقض مذهبه. وانظر تمام حسان في كتابه: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. ثانية، القاهرة ١٩٧٩، ص ٥١، حيث ذكر أن ترتيب سيبويه للمخارج هو ترتيب شيوخه كذلك.

سيبويه نفسها من دون تغيير ما. ويؤكد هذا أن سيبويه أتمّ مواضيع الدرس الصوتي المناسب للعربية من جهة، وأنّ الذين جاؤوا من بعده لم يجدوا ما يعدّ خطأ في درسه من جهة أخرى. لكنّ كلام سيبويه لم يكن كلّهُ مفهوماً، إذ اعترى الكثير منه غموض لم تفلح الشروح اللاحقة في إزالته.

أما المحدثون فقد عرضوا لدرس سيبويه الصوتي كالدكتور إبراهيم أنيس والدكتور تمام حسان والدكتور عبدالصبور شاهين والدكتور غانم قدوري الحمد وغيرهم. كما عرض له عدد من المستشرقين كأرتور شاده وهنري فليش وجان كانتينو، وبعض مؤرخي اللسانيات من الأجانب. وقد أُثرت في هذا التناول الحديث مسائل مهمّة، أبرزها محاولات فهم الجهر والهمس وصوت الصّدر، وبيان قرب ذلك أو بعده من الدرس الصوتي الحديث، ولا سيّما بعد تطوّر وسائل التشريح وفيزياء الصوت والتصوير التلفزيوني لجهاز النطق وآلياته الدقيقة. وقد انتهت بحثنا هذا إلى أنّ مفهوم الجهر والهمس لدى سيبويه ليس مرتبطاً حتّىً باهتزاز الوترين الصوتيين، كما فهم ذلك عدد من الباحثين المحدثين، وأنه يعبر عن أثر سمعي لقوّة التصويت في الفراغات الرنانة في الحلق والفم والحنياشيم. وإذا صحّ ما انتهينا إليه كان سبقاً يكشف مفهوم سيبويه للجهر والهمس، بعد تأخير مديد، ربّما كان سببه أسلوب سيبويه وعدم وضوح عباراته من جهة، والاختلاف حول مفهوم الجهر لدى المحدثين، وعدم التوصل إلى معايير شاملة للجهر على المستويين النطقي والسمعي من جهة أخرى.

إنّ من حقّ سيبويه علينا أن نعود إلى درسه بالفحص والتفسير كلّما جدّ جديد في علوم اللغة وتطبيقاتها التقنية، لأنّ هذه العلوم تكشف لنا غوامض هذا

الدرس، وتبرهن للدارسين أن ما أنجزه سيويه في تلك الصفحات القليلة يعدّ أثرًا علميًا فذاً قلّ نظيره في تاريخ اللسانيات. ومن واجبا العلمي الخالص أن ندفع تلك الآراء السطحية التي زعمت أن سيويه فهم النحو والصرف، لكنه لم يفهم الأصوات. إن شروحه في باب الإدغام تؤكد فهمه العميق، وتقدّمه على كل من عرض لذلك من القدامى الذين كانوا عيالاً عليه.

٢- المسائل الصوتية

عرض سيويه لأبرز ماتهم به الدراسات الصوتية مشيرًا إلى أهمية المشافهة في تبيين الأصوات تبيينًا صحيحًا. وهذا نحو من التنبيه إلى الطبيعة الشفهية للغة^(٥). وهي حقًا طبيعة واضحة المعالم في درسنا، لأن القرآن الكريم والشعر العربي وضروب الفنّ الثري والقصّ ونحوه تُتلى وتُقرأ وتُنقل مشافهة قبل أيّ تدوين. ويتفق هذا مع أسس التحليل اللغوي التي تنطلق من كون اللغات تتصف بكونها كلامًا منطوقًا يتداول مشافهة. لذلك وجب الاهتمام بالأصوات المنطوقة قبل الحروف المكتوبة^(٦).

ثم ذكر أن أصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفًا عددها بالنظر إلى مخارجها، لا إلى صورها الخطية الألفبائية، أو قيمها العددية التي تنطوي في الترتيب الأبجدي. ويدلّ هذا على اتجاه نحو الطبيعة الصوتية للحروف. والحروف عند سيويه وغيره من القدامى تدلّ بحسب سياقها على المنطوق أو

(٥) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٢.

(٦) انظر كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل (مرجع سابق)، ص ٢٣-٢٤.

المكتوب^(٧). لكنه أشار إلى شيء جديد هنا هو الحروف الفرعية. وينبغي أن نقرّر أن عدد الحروف لدى سيبويه هو الشائع في المصادر القديمة وعليه المعوّل، مع اختلافات يسيرة لم تجد سبيلها إلى الشيوخ^(٨).

وأورد سيبويه مادعاها بالحروف الفروع، لأن أصلها من التسعة والعشرين السابقة، وهي كثيرة وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار. والغالب أنها كثيرة الاستعمال لا العدد، لأنه حصرها في ستة فروع عدّها فصيحة. ويبدو أن معظمها مستفاد أصلاً من كتب القراءات القرآنية التي دوّنت الوجوه القرآنية المتعدّدة، والمنقولة من المصطفى ﷺ. أما ورودها في الأشعار الفصيحة فطبيعي، إذ نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين عماده التعبير الأدبي ولا سيما في الشعر ديوان العرب. وقد نصّ مكّي القيسي صاحب كتاب الرعاية على أن خمسة من هذه الفروع ترد في قراءات القرآن الكريم، أما السادس منها وهو الشين التي

(٧) انظر حول مفهوم الحرف بحث «ظاهرة الحرف عند اللغويين العرب القدماء» لمحمد

لظفي الزليطني، مجلة المعجمية العربية، تونس، العدد الثاني ١٩٨٦، ص ٤٧ وما تليها.

(٨) انظر: ابن جني: سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هندراوي، ط. دار القلم بدمشق

١٩٨٥، ١/٤٥-٤٦، وفيه: «فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصعّدها، وهو

الصحيح، فأمر (كذا والصواب: فأما) ترتيبها في كتاب العين ففيه خلل واضطراب

ومخالفة لما قدّمناه آنفاً مما رتبته سيبويه، وتلاه أصحابه عليه، وهو الصواب الذي يشهد

التأمل له بصحته». وانظر: الكتاب لسيبويه، ٤/٤٣١، وقارن بمكي بن أبي طالب

القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق أحمد حسن فرحات، ط.

دار المعارف بدمشق ١٩٧٣، ص ٧٢ وما يليها.

كالجيم فلا يرد في هذه القراءات^(٩). كذلك أورد سيبويه ثمانية فروع وصفها بغير المستحسنة ولا الكثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا ترد في قراءة القرآن ولا في الشعر. وقد وصفها ابن جنبي بأنها لا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مردولة غير متقبلة. أما مكّي القيسي فقد وصفها بالقلّة والشذوذ^(١٠). ومع أن سيبويه لم يذكر مصدر هذه الفروع «الرديئة»، فإننا نظنّ أن بعضها انحدر إلى العربية من آثار التعريب، وأن بعضها لم يفارق طبيعته اللهجية الضيقة فبقي بعيداً عن الفصح^(١١). ثم وصف سيبويه الضاد الضعيفة وصفاً غامضاً حير الدارسين فذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى. وأقرب ما يمكن أن يوافق وصف سيبويه هو ما ذكره

(٩) انظر: مكّي، كتاب الرعاية (مرجع سابق) ص ٨٨. والفروع الخمسة هي النون الخفية أو الخفيفة، والهزمة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم بلغة أهل الحجاز.

(١٠) انظر: ابن جنبي، سرّ صناعة الإعراب، ١/٤٦، ومكّي، كتاب الرعاية، ص ٨٨-٨٩.

(١١) انظر: الخضر اليزدي، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت ٢٠٠٨، ٢/٩٩٨. وجاء فيه تعليقاً على هذه الفروع المستقبحة - كما يقول - أنها إنما نشأت هذه المستهجنات بمخالطة العرب غيرهم، ومن الجائز أن يكون من مقتضيات تعيّر الزمان. ومنها ما هو لغة عوام أهل البادية... وهذه الفروع هي - كما أوردتها سيبويه -: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالکاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والطاء التي كالتاء، والباء التي كالفاء. انظر: الكتاب، ٤/٤٣٢، وانظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٥٤.

السيرافي من أن هذه الضاد الضعيفة كانت تنطق كالطاء، أو بين الضاد والطاء^(١٢). ويشار هنا إلى أن جان كانتينو تتبع استعمالات متعدّدة للضاد في لهجات عربية مختلفة. وذكر في هذا الصدد أنها تنطق كالطاء - أي كالضاد الضعيفة - أو تنطق طاءً خالصة، أو دالاً مفخمة، أو طاء، أو زايًا، أو ذالًا، أو لامًا^(١٣).

ووقف سيبويه بعد ذلك على وصف دقيق لمخارج الحروف العربية، وجعل لها ستة عشر مخرجًا مبتدئًا من أدنى الحلق. ويبدو أنه يسلك مسلك شيخه الخليل الذي نظر إلى الحروف كلّها وذاقها (أي جرّب نطقها)، فوجد مخرج الكلام كلّ من الحلق، فصيّر أولها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق^(١٤). وعلى هذا النحو جرى جمهور القدامى لاعتبار الصوت المنبعث من الصدر الأساس في ترتيب المخارج مبتدئين بما يلي الصدر. وذكر شارح المقدمة الجزرية زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) أن الأولى أن يكون أول المخارج هو الشفتين، ثم اللسان وما يليه، ثم الحلق فالصدر. لكنه وافق الناظم ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)

(١٢) انظر: جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، نشر الجامعة التونسية ١٩٦٦، ص ٨٦. وانظر: رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة، الخانجي بالقاهرة، ط. ثانية ١٩٨٥، ص ٦٢ - ٧٤.

(١٣) انظر: كانتينو (مرجع سابق)، ص ٨٥ - ٨٧.

(١٤) انظر: الخليل، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، ط. إيران ١٤٠٥هـ، ١/ ٤٧.

الذي جرى مجرى المتقدمين في ترتيبهم المشهور^(١٥). ويشير وصف المخارج عند سيبويه إلى معرفة دقيقة بأعضاء النطق، إذ ذكر الحلق وقسمه إلى ثلاثة أجزاء متتالية، وذكر اللسان، وحدد أجزاءه، كأقصاه، وطرفه، ووسطه، وحافته، وأول حافته، ومنتهى طرفه، وظهره، وحروفه. وذكر الحنك الأعلى، ووسطه. وذكر الأسنان تفصيلاً كالأضراس، والضاحك والناب والرباعية والثنايا وفوق الثنايا وأصولها وأطرافها والثنايا العلى. وذكر الشفتين وباطن الشفة السفلى. كما ذكر الحياشيم ونسب إليها مخرجاً مستقلاً. ومع أن سيبويه اقتصد في رصد آليات النطق - على عادة اللغويين - فقد أظهر تدقيقاً لافتاً في تعيين المخارج، وتحديد مناطق النطق، وتنظيم ذلك تنظيمًا مكتملاً. لكن فاتته معرفة الوترين الصوتيين فضلاً عن عدم ذكره الحنجرة التي تعادل عنده أقصى الحلق. وليس هذا بمستغرب، إذ لم يعرف القدامى، من مختلف الأعراق، الوترين الصوتيين. وربما كان هولدر (W. Holder) أول من وصف عمل الحنجرة أثناء الجهر، وردّه إلى انقباض جانبيّ الحنجرة ومرور النفس في فتحة المزمار^(١٦).

(١٥) انظر: زكريا الأنصاري، الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية، تحقيق نسيب نشاوي، دار المكتبي بدمشق ١٩٩٥، ص ٤٢.

(١٦) انظر: روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم (٢٢٧)، تشرين الثاني ١٩٩٧، ص ٢٠٠ - ٢٠١، وانظر: جورج موان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، ترجمة بدر الدين القاسم، جامعة حلب ١٩٨٢، ص ٢٠٨، وقارن بـ بوردن وهاريس، أساسيات علم الكلام، ترجمة محيي الدين حميدي، دار الشرق العربي، حلب (د.ت)، ص ٤٠١.

وقد علّق كانتينو على ترتيب سيبويه واصفاً إياه بأنه «ترتيب صحيح بصفة جليّة ملحوظة وموافق لترتيبنا نحن»^(١٧). لكن تجدر الإشارة إلى أنّ بعض علماء التجويد جعلوا المخارج سبعة عشر مخرجاً، إذ أفردوا للحروف الجوف (الصوائت الطويلة) مخرجاً مقدّراً جعلوه يتصدّر الترتيب^(١٨). على أنّ بعض القدماء كقطرب (ت ٢٠٦هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ) والجرمي (ت ٢٢٥هـ) وابن كيسان (ت ٢٩٩هـ) ذهبوا إلى أنّ مخارج الحروف هي أربعة عشر مخرجاً، فجعلوا اللام والراء والنون من مخرج واحد، وهو طرف اللسان^(١٩). لكنّ الدرس الحديث لمخارج الأصوات العربية أجرى تعديلاً لترتيب المخارج عند سيبويه صيّرهما عشرة مخارج بعد أن كانت ستة عشر مخرجاً. فقد ألغى مخرج الخيشوم، لأنّ النون المخففة فرع (ألفون سياقي Allophone) للنون التي هي (فونيم Phonème)، أي وحدة صوتية مستقلة. وجمع مخارج اللام والنون والراء في

(١٧) انظر: كانتينو، (مرجع سابق)، ص ٣٢، وقارن بما قاله برجشتراسر في كتابه التطور النحوي للغة العربية، تصحيح رمضان عبد التواب، الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض ١٩٨٢، ص ١٣. وانظر ترتيب المخارج لدى سيبويه في الكتاب، ٤/٤٣٣-٤٣٤ وقارن بطبعة بولاق، ٢/٤٠٥. أما تمام حسّان فقد زعم أنّ النحاة العرب خلطوا خلطاً كبيراً في تحديد هذه المخارج، ثم ضرب مثلاً على ذلك بما ذهب إليه ابن الجزري المتأخر زماناً. انظر: كتابه: مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة بالدار البيضاء ١٩٧٩، ص ١١١.

(١٨) انظر مثلاً ترتيب المقدمة الجزرية، في: شرح زكريا الأنصاري (مرجع سابق)، ص ٤١.

(١٩) انظر: غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية (مرجع سابق)، ص ١٧٦-١٧٧.

مخرج واحد. وجعل مخرج الكاف مع الغين والخاء في مخرج واحد سمّاه بالطبقي. وجمع الضاد والصاد والسين والزاي والطاء والذال والتاء في مخرج واحد دعاه بالأسناني اللثوي. وسمّى الهمزة والهاء حنجرية بدلاً من تسميتها بالحلقيّة. وليس هذا التعديل بالأمر الخطير، إذ لا يعدّ جمع اللام والنون والراء رأياً جديداً، فقد رآه بعض القدماء - كما مرّ بنا آنفاً - وأوماً إليه سيويه في تضاعيف تحليله لأمثلة الإدغام^(٢٠). وكذلك وصف الهمزة والهاء بالحنجرية، إذ سبق إلى ذلك ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) في رسالة أسباب حدوث الحروف^(٢١). أما نقل الضاد إلى مخرج آخر فسببه وصف الضاد الحالية التي ربما تكون متطوّرة عن النطق القديم الذي ينطبق عليه وصف سيويه. فالمخرج الجديد هو لهذه الضاد «الحديثة»، وليس للقديمة. أما تسمية الخاء والغين بالطبقية ونقلها إلى ما بعد القاف (مبتدئين من الحلق) وجمعها مع الكاف في مخرج سمّي بالطبقي فليس من باب الخطأ الصرف. فقد أوماً إلى نحو من هذا ابن سينا، كما أن سيويه أشار إلى قرب الغين والخاء من مخرج اللسان^(٢٢).

(٢٠) انظر: الكتاب، ٤/٤٥٢.

(٢١) انظر: ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣، ص ٧٢. ويذكر هنا أن ابن سينا لم يلقّب هذين الصوتين، بل وصف خروجها من فراغ الحنجرة.

(٢٢) انظر: ابن سينا (مرجع سابق)، ص ٧٣-٧٤، وص ١١٦-١١٧. وذكر ابن سينا أن الكاف تحدث حيث تحدث الغين، ولكن بحبس تام، وسائر الأحوال بحالها. (ص ١١٧). وانظر الكتاب، ٤/٤٥٢. وقارن بكتايي: مبادئ اللسانيات، ط. ثلاثة ٢٠٠٨، دار الفكر بدمشق، ص ١١٤-١١٥.

ثم عدّد سيويه الحروف المجهورة، وبلغ بها تسعة عشر حرفاً وافق الدرس الحديث عليها ما عدا الهمزة والقاف والطاء. وعدّد المهموسة أيضاً، وبلغ بها عشرة أحرف. ويوافق هذا التقسيم - فيما يبدو - التقسيم الحديث موافقة تامة. أما مسألة الحروف الثلاثة: الهمزة والقاف والطاء التي تبين أنها مهموسة وليست مجهورة، فليست لها قيمة حقيقية^(٢٣). ويشرح بعد ذلك مصطلح المجهور والمهموس شرحاً غامضاً بقي فهمه هدفاً للكثير من القدامى والمحدثين على حدّ سواء.

ويقف بعد ذلك على تعريف الحرف الشديد، ويعدّد الحروف التي تتصف بالشدّة، وتعريفه أقرب ما يكون إلى الدرس الحديث، إذ ذكر أن الصوت (يجبس) ولا يجري مع هذه الحروف. أما الحرف الرخو، فلم يعرفه، واكتفى بالإشارة إلى جريان الصوت فيه، لأنه ضدّ الشديد، كما تقدّر. ويعدّد سيويه الحروف الرخوة أيضاً. وقد رأى المحدثون من علماء الأصوات أنّ الضاد «الحديثة» شديدة، على حين أن سيويه عدّد «الضاد» الموصوفة لديه رخوة. وكذلك رأى الدرس الحديث أنّ الجيم ليست شديدة - في صورتها الفصحى - بل هي مزيج من الشدة والرخاوة، ولذلك ينبغي إخراجها من الحروف الشديدة^(٢٤). أما الحروف التي لم يضعها مع الشديدة أو الرخوة، فقد ابتدأها بالعين واصفاً إياها بأنها بين الرخوة والشديدة. ثم ذكر اللام ووصفها

(٢٣) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٤، وقارن بكانتينو (مرجع سابق)، ص ٣٥.

(٢٤) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٤ - ٤٣٥، وقارن بإبراهيم أنيس (مرجع سابق)، ص ١١٣،

وانظر: ص ٢٣ - ٢٤ منه أيضاً.

بالمنحرف، والنون والميم وفيهما غنة، والراء وفيه تكرير، ومنها اللينة، أي الواو والياء، والهاوي، وهو الألف. ويعقب على هذه ثلاثة الأحرف (الواو والياء والألف) بقوله: إنها أخفى الحروف (عدم وضوح مخرجها) لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجًا: الألف، ثم الياء، ثم الواو^(٢٥). ورأى كاتنينو أنه باستثناء العين، فإن الترتيب السابق للشدة والرخاوة وما بينهما مطابق لترتيب علماء الأصوات العصريين^(٢٦). لكن ينبغي أن نشير إلى أن عبارات سيبويه في تصنيفه للأصوات التي تدعى عادة بالمتوسطة لم تكن واضحة، حتى ذهب إبراهيم أنيس مثلاً إلى أن سيبويه عدّ اللام والنون من الحروف الشديدة، لأن طرف اللسان معها يلزم مكانه، ولكن الصوت مع ذلك يخرج^(٢٧). وهذا استنتاج خاطئ تمامًا، لأن سيبويه عدّ الحروف الشديدة والرخوة من قبل، ولم تكن لديه حاجة إلى التكرار أو الإضافة. أما تفسير كلام سيبويه فهو أنه عرض لضرب جديد من صفات الحروف متجاوزًا الجهر والهمس والشدة والرخاوة حتمًا. وليس وصفه للصوت المنحرف، أي اللام وللصوتين الأغنيتين، أي النون والميم، وكذلك وصفه للصوت المكرر، أي الراء بالشدة إلا نحوًا من التدقيق في

(٢٥) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢٦) انظر: كاتنينو (مرجع سابق)، ص ٣٦، ويقصد كاتنينو بكلامه سيبويه وابن يعيش.

والأصل هو لسيبويه.

(٢٧) انظر: إبراهيم أنيس (مرجع سابق)، ص ١٢٧، وتابعه تمام حسّان في كتابه اللغة العربية

معناها ومبناها (مرجع سابق)، ص ٥٨ - ٥٩.

وصف آلية الصوت في درجات الانفتاح، إذ إن هذه الشدة ليست مساوية لتلك الشدة الخالصة في الحروف الشديدة. فبعض هذه الحروف «المتوسطة» تبدأ بحبس، لكن الحبس لا يمنع الصوت، لأن الهواء يتسرّب من مواضع أخرى، فلا تتمّ الشدة^(٢٨). ولأنها كذلك ليست رخوة فيحتك الهواء بالعضوين الحاصرين. وأرى أن هذا واضح من كلام سيويه عن اللام خاصة^(٢٩). ويؤيد قصده المشار إليه أن الحروف التي وصفها بالشدة أو الرخاوة لاتضم أيّاً من هذه الحروف، أي اللام والنون والميم والراء والياء والواو والألف^(٣٠). وبناءً على ماتقدّم فهم الذين جاؤوا بعد سيويه أن حديثه عن هذه الحروف قصد منه شيء آخر غير الشدة والرخاوة، وهو ما اصطلحوا على تسميته بالتوسّط، ونحوه^(٣١).

(٢٨) انظر في وصف درجات الانفتاح: كانتينو (مرجع سابق)، ص ٣٢-٣٣، وقارن بكتايي مبادئ اللسانيات (مرجع سابق)، ص ١٢١-١٢٢.

(٢٩) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٥.

(٣٠) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٤-٤٣٥.

(٣١) انظر: المبرّد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٩هـ، ١/٣٣١ وقد سمّاها المبرّد بالحروف التي تعترض بين الشديدة والرخوة، وذكر أنها شديدة في الأصل، لكن النفس يجري فيها. أما ابن جني فقد دعاها بالحروف بين الشديدة والرخوة. انظر: سرّ صناعة الإعراب (مرجع سابق)، ١/٦١، وقال إنه يجمعها في اللفظ «لم يرو عننا»، ونحوه. ولكن تجدر الإشارة إلى أن بعض القدامى أخرج الألف والواو والياء من هذه الحروف، وجعلها مع الرخوة. انظر: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة، ط. أولى ٢٠٠٨، ص ٢٩٣.

ومعروف أن هذا الدرس صنّف حديثاً ضمن درجات الانفتاح. وقد وصف المحدثون التوسّط، ورأوا أن هناك مع الميم والنون تحويلاً لمجرى الهواء إلى الأنف، على حين أن اعتراضاً طفيفاً يحدث في جزء من الفم مع اللام، وأن حجراً متكرراً يحدث مع الراء. أما الواو والياء غير المدّيتين فهما تقتربان من حدود الحفيف الذي يتولد مع الأصوات المهموسة. وبناءً على ماتقدم أخرج الدرس الحديث هذه الحروف جميعها من قسمي الشديدة والرخوة، اعتداداً بالفروق بينها وبين ذينك القسمين^(٣٢). أما العين فقد ذكر أنها بين الشديدة والرخوة - كما مرّ بنا- لأنك تصل إلى التريد فيها لشبهها بالحاء^(٣٣) ويدلّ هذا على أن العين تشبه الحاء، وهي أختها في المخرج الحلقي، لكن حفيفها ضعيف لا يبلغ مبلغ الحاء المهموسة، مع أنّ الأدلة التجريبية الدقيقة غير متوفرة^(٣٤) أما ضمّ الألف إلى الحروف المتوسطة فهو من باب معالجة «الصوامت» و«الصوائت» على صعيد واحد. والألف ليست إلا صائتاً طويلاً دائماً بخلاف الواو والياء، إذ لهما حالتان تعدّ إحداهما أقرب إلى «الصوامت»، على حين تعدّ الأخرى من «الصوائت»^(٣٥).

(٣٢) انظر: كاتينو (مرجع سابق)، ص ٣٢-٣٣، وتام حسان، مناهج البحث في اللغة

(مرجع سابق)، ص ١١٦-١١٩، وقارن بكمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات،

دار المعارف بمصر، ط. سابعة ١٩٨٠، ص ١٣١-١٣٢.

(٣٣) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٥.

(٣٤) انظر: الأصوات اللغوية لأنيس، ص ٢٥، وعلم اللغة العام لبشر، ص ١٣٢.

(٣٥) انظر: علم اللغة العام لبشر، ص ١٣٢-١٣٣.

ويشير سيبويه في هذا الموضع الشائك - في تضاعيف حديثه - إلى ما لا لبس فيه من صفات أخرى، كالمنحرف (أي الجانبي)، وهو اللام الذي يسمح أحد جانبي اللسان في نطقه بمرور الهواء، على حين يكون وسط اللسان المتصل بالثة حائلًا دون ذلك. والأنفي (أي الأغنّ)، وهو النون والميم. والميم تتصل الشفتان حين النطق بها، على حين أن الهواء يمرّ كلّهُ من الفراغ الأنفي ويخرج من طرف الأنف (أو الخيشوم). والنون كذلك، إذ يتسرّب الهواء من غير موضع الحبس بطرف اللسان والثة، ويخرج من الأنف أيضًا. ووصف سيبويه لهذين الحرفين هو من الوضوح بمكان. ومن هذه الصفات: المكرّر، وهو الراء. والراء لا يكاد يظهر الحبس فيها، لأن طرف اللسان يضرب في الثة ضربات مكررة من دون أن يمنع خروج الهواء من الفم.

وهذه الحروف الأربعة توصف في الدرس الحديث بالموائع (Liquides) وتظهر خصائص هذه الحروف في اتساع مجرى الهواء معها، وعدم انطباق حالتها الشدّة أو الرخاوة عليها، وفي وضوحها السمعي وجهرها، وفي شيوعها شيوعًا كبيرًا السهولة نطقها (أو ذلاقتها) (١).

أما صفة «الليّنة» التي جاءت في ذلك الموضع أيضًا فتشير إلى عدم إفراد الصوائت، أو الحروف المعتلة بحيز مستقل في درس سيبويه. وقد ظهر ذلك بداية حين جعل الألف الليّنة مع مخرج الهمزة والهاء على صعيد واحد، وحين

تجاهل التمييز بين حالتي الواو والياء الصائتة والصامتة (أو نصف الصامتة)، فأورد الياء والواو في ترتيب المخارج مرّة واحدة. وجرى على ذلك أكثر العلماء كالمبرد (ت ٢٨٥هـ)، والزجاجي (ت ٣٤٠هـ)، وابن جني (٣٩٢هـ)، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، والرازي (ت ٦٠٦هـ)، والسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وابن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، وابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ)، وابن عصفور (ت ٦٦٩هـ)، والأستراباذي (ت ٦٨٨هـ)، وغيرهم. وكذلك مكّي القيسي (ت ٤٣٧هـ)، وهو من متقدّمي علماء التجويد^(١). لكن الخضر اليزدي أحد

(٣٧) انظر: المبرد، المقتضب (مرجع سابق)، ٣٢٨/١، وزاد المبرد في الحديث عن المخرج الأول قوله: «والألف هاوية هناك» والزجاجي، كتاب الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة بيروت ودار الأمل بإربد، ط. رابعة ١٩٨٨، ص ٤١٠، وابن جني، سر صناعة الإعراب (مرجع سابق)، ٤٦-٤٨، والزمخشري، المفصل مع شرح ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٢٣/١٠، والرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط. أولى ١٩٨٥، ص ١١٨-١١٩، والسكاكي، كتاب مفتاح العلوم، المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر ١٣١٧هـ، ص ٥-٦، وابن الحاجب، الشافية مع شرحها للأستراباذي، وشرح شواهده لعبد القادر البغدادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفراف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦هـ، ٢٥١/٣، وابن عصفور، المتمع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، ط. أولى ١٩٧٠، ٦٦٨/٢-٦٧٠. وانظر كذلك من علماء التجويد، مكّي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، ص ١٣٤.

شراح الشافية ذكر أن الألف ليس لها مخرج، لأن صوتها لا ينقطع عند مركز معين، بل هو هواء مستطيل يمتد من غير حصر. غير أنه لم يعترض على ابن الحاجب في متابعته لسيبويه^(٤٠). وظهر بعد ذلك مفهوم المخرج المحقق والمخرج المقدّر، وأفردت الألف والواو والياء بمخرج دعي بمخرج الجوف، وهو مخرج مقدّر. أما الواو والياء غير المديتين فقد بقيتا في ترتيب المخارج مع المخارج المحققة^(٤١).

ويميّز سيبويه الألف من الواو والياء، مع اشتراكها - أي ثلاثة الأحرف - في أن مخارجها تتسع لهواء الصوت أكثر من اتساع غيرها، لأن الألف أشدّ اتساعاً، إذ ليس لها تحرك نطقي ملحوظ، على حين أن الياء يرتفع معها اللسان تجاه الحنك، وأن الواو تُضمّ معها الشفتان. وهذه الثلاثة - كما يقول - أخفى الحروف لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجاً: الألف ثم الياء ثم الواو^(٤٢). والخفاء هنا هو عدم وضوح المخرج بسبب اتساعه، وقد أكّد سيبويه ذلك الفرق بين الألف من جهة، والواو والياء من جهة أخرى في موضع متقدّم. يقول: « وإنما خفت الألف هذه الخفة، لأنه ليس منها علاج على اللسان والشفة، ولا تحرك أبداً، فإنما هي بمنزلة النفس، فمن ثمّ لم تثقل ثقل الواو عليهم ولا الياء، لما ذكرت لك من خفة مؤنتها^(٤٣). ويصف سيبويه الألف بالهاوي نظراً

(٣٨) انظر: الخضر اليزدي (كان حياً سنة ٧٢٠هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، ٢/ ٩٨٢.

(٣٩) انظر: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية (مرجع سابق)، ص ٣٣٢.

(٤٠) انظر: الكتاب، ٤/ ٤٣٦.

(٤١) انظر: السابق، ٤/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

لاتساع مخرجه لهواء الصّوت أشدّ من اتساع مخرج الواو والياء، كما تقدمت الإشارة. وذكر سيبويه في تضاعيف باب الإدغام بعد الخلاصة التي قدّمها للدرس النظري ما يؤكد شرحه لأحوال الواو والياء والألف بعيداً عن فكرة الترتيب المخرجي. « فالياء أخت الواو، فكأنهما من مخرج واحد ». كما أن « الواو إذا كانت قبلها ضمة والياء قبلها كسرة فهو أبعد للإدغام، لأنها حينئذ أشبه بالألف.. وإن لم يبلغا الألف، ولكن فيهما شبهة منها. »^(١). أما إذا لم تكن حركة ما قبلها مجانسة لهما فهما ليسا بمنزلة الألف، نحو: ثوب بكر، وجيب بكر^(٢). ونجد لدى ابن جنّي شرحاً لمخارج هذه الأصوات، وبحثاً للحركات التي هي أبعاض لهذه الحروف. كما نجد عنده إشارات إلى قوّة الواو والياء إذا تحركتا، إذ تلحقان بالحروف الصّحاح. وكذلك تصحّ الواو والياء إذا كانتا مسبوقتين بفتح، نحو: ثوب، وبَيْت^(٣).

(٤٢) انظر: الكتاب، ٤/٤٥٣، ٤٤٦، ٤٤٧.

(٤٣) انظر: الكتاب، ٤/٤٤٠.

(٤٤) انظر: ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، ٨/١، ٢٠-٢١. وقد أوضح مكّي القيسي حالتي الواو والياء بصورة جلية. فالواو والياء الساكنتان إذا سبقتا بفتح فهما حرفا لين. أما إذا سبقتا بحركة مجانسة لهما فهما مع الألف حروف المدّ واللين. انظر: الرعاية، ص ١٠١. أما ابن سينا فقد فصل بين الواو الصامتة والياء الصامتة من جهة الواو المصوّتة والياء المصوّتة والألف من جهة أخرى في بيان المخارج. انظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، ص ٨٤. ومصطلح «الصامت» و«المصوّت» هما من استعماله.

والغريب في هذا الصدد ما ذكره إبراهيم أنيس من أن مسلك القدماء - ومنهم سيبويه - في الحديث عن هذه الأصوات حين تحدثوا عن الصفات، لحين تحدثوا عن المخارج، مسلك سليم مستقيم على كل حال، فهو خير من تلك الرواية التي جاءت في معجم (كتاب) العين من أنها جوفية أو هوائية وليس لها حيز تُنسب إليه^(٤٥). والحق أن القدامى لم يعالجوا هذه الأصوات حين تحدثوا عن الصفات، إنما كانوا يذكرون صفات لهذه الأصوات، مع ملاحظة تداخل درس الصوامت والصوائت لديهم. والدليل على ذلك أن ابن جني خصّص لهذه الحروف «الصوائت» الطويلة و«الحركات» القصيرة حيزًا مستقلًا عن بحث المخارج والصفات^(٤٦). أما معالجة الخليل فهي أقرب إلى الصواب من غيرها حتمًا، لأن الخليل فهم أن هذه الحروف لا ينقطع عندها الصوت فيكون لها مخرج واضح محقق، إنما يتصل النطق بها في فراغ الحلق والفم حتى ترجع إلى مبتدئها ومبتدأ كل الأصوات من أقصى الحلق، أي الحنجرة، لكن على غير طريقة الصحاح^(٤٧).

(٤٥) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١١٨.

(٤٦) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ١٧ - ٣٣.

(٤٧) انظر: كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص ٣٢ - ٣٣، وقارن بكتاب العين (مرجع سابق)، ١/ ٥٧ - ٥٨ وقد وصف سيبويه هذه الأصوات في موضع متقدم (انظر الكتاب، ٤/ ١٧٦) وصفًا قريبًا من وصف الخليل حين قال: «وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لين ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمدّ للصوت. فإذا وقفت عندها لم تضمّها بشفة ولا لسان ولا حلق كضمّ غيرها، فيهوي الصوت إذا وجد متسعًا حتى ينقطع آخره في موضع الهمزة».

ويختم سيبويه حديثه في هذا الجانب النظري بالوقوف عند الحروف المطبقة والمنفتحة. فالمطبقة عنده هي الصاد والضاد والطاء والظاء، أما المنفتحة فهي كل ما سوى ذلك من الحروف، لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك، ترفعه إلى الحنك الأعلى. ويوضح سيبويه - وكلامه هنا من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى مزيد - أن حروف الإطباق لها موضعان من اللسان، موضع يجاذي الحنك الأعلى (أي من مؤخر اللسان)، وموضع يشارك في المخرج. أما حروف الانفتاح فلها موضع واحد من اللسان هو موضع النطق في المخرج فقط^(٤٨). ويرى سيبويه أن الإطباق يكون فيصلاً بين حرف وآخر. « ولولا الإطباق لصارت الطاء ذالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس من موضعها غيرها^(٤٩). فالضاد تنفرد بمخرج كما تقدّم وصفها وتصنيفها لديه. أما الطاء والذال من جهة، والصاد والسين من جهة ثانية، والظاء والذال من جهة ثالثة فيشكّل كل منها ثنائياً مخرجياً. ويكفي لكي يتحول الحرف إلى أخيه أن تزول عنه صفة الإطباق. أما في النطق الحديث فيصح القول: لولا الإطباق لصارت الطاء تاء، والضاد ذالاً^(٥٠). وقد تابع ابن جنّي هذا الدرس الخاص بالصفات، وصنفها

(٤٨) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٦، وقارن بإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١١٩، وتمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص ١١٥. ويقول الدكتور حسان: «أما الإطباق فارتفاع مؤخر اللسان في اتجاه الطباق بحيث لا يتصل به، على حين يجري النطق في مخرج آخر غير الطباق، يغلب أن يكون طرف اللسان أحد الأعضاء العاملة فيه». وانظر كذلك: غانم قدوري الحمد، شرح المقدمة الجزرية ٢٩٩-٣٠٠.

(٤٩) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٦.

(٥٠) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص ٣٠٠.

ضمن انقسامات قبس مضمون معظمها من سيبويه. وذكر في هذا الصدد: الاستعلاء والانخفاض، والصحة والاعتلال، والسكون والحركة، والأصل والزيادة، وحروف القلقلة، والمشربة، وحروف الذلاقة، والمصمتة، والحرف المهتوت^(١). ومع أن الفضل للمتقدم، وأن ابن جني ضَمَّن كلامه شيئاً من أقوال غيره من غير إشارة ثمّ، فإن عمله في الدرس الصوتي ليس بالقليل أو المكرّر.

٣- بين الخليل وسيبويه

لقد تبين مما تقدم أن سيبويه أجمل المعلومات التي قبسها من شيخه الخليل، ونظمها، وساقها بهذه الطريقة المحكمة علمًا وأسلوبًا، ثم طبقها باقتدار عجيب في أمثلة الإدغام التي عرض لها، مما يؤكد فهمه للمعطيات الصوتية كفهمة للمعطيات النحوية، فضلًا عن فقهه العربية وأصولها والاحتجاج لها. ولا عبرة بما ساقه بعض الدارسين من أن سيبويه لم يذكر شيخه الخليل على عادته في كتابه. إذ إنه نقل صورة متفقًا عليها بين شيوخه وأصحابه^(٢). غير أنه ينبغي أن نؤكد أن الخليل كان يورد معلوماته في كتابه «العين» عن طريق الإملاء على تلميذه الليث بن المظفر، ولم يكن قد توفّر على كتابه يؤلفه التأليف المعهود مع المراجعة والتدقيق.

(٥١) انظر: ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، ١/ ٦٠ - ٦٥. ويذكر أن مكي القيسي بلغ بالصفات أربعًا وأربعين صفة. انظر: الرعاية، ص ٩١ - ١١٧.

(٥٢) انظر: كاتنينو، دروس في علم أصوات العربية، ص ٢٩، وإبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٠٦، وتمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٥١. وقارن بالمزهر للسيوطي، ١/ ٨٥. وذكر الدكتور تمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها أنه «ذهب بعضهم إلى أن سيبويه فهم النحو والصرف فهمًا تامًا عن شيوخه، ولكنه لم يفهم عنهم الأصوات، ومن ثمّ لم يستطع أن ينقلها واضحة للناس»، انظر: ص ٦٠.

كما أنه كان ينشر آراءه على تلامذة آخرين غير الليث. ولذلك جاءت المعطيات الصوتية في مقدمة العين، وفي مصادر أخرى قريبة من زمن الخليل كالجمهرة لابن دريد (ت ٣٢١هـ) وتهذيب اللغة للأزهري (ت ٣٧٠هـ) متداخلةً ولا تسلك مسلك النص الواحد. لكن كثرة النقول التي ضمتها كتب اللغة عن الخليل في هذا الصدد تشير إلى أن المصدر واحد، وإن تعددت الروايات واختلفت الصور.

وتجدر الإشارة إلى أن الغاية من الدرس الصوتي فرّقت بين الشيخين الخليل وسيبويه. فقد كانت غاية الخليل كشف خصائص تشكيل الأصوات لبناء معجم يستوعب كلام العرب، من غير أن يشدّ عنه شيء من ذلك^(١). ولذلك أسهب الخليل في الحديث عن مسائل صوتية تشكيلية تتصل بطرق تركيب الكلام وخصائصه. كالأبنية وأنواعها، وحروف الذلاقة والطلاقة والتوسط، وأبنية الحكاية المؤلفة والمضاعفة، وبعض معايير معرفة المصنوع والدخيل، وقواعد تبيين مجاورة الحرف للحرف بالتقدم والتأخر، ونحو ذلك. أما غاية الدرس الصوتي عند سيبويه فأخصّص من ذلك. فهو يقول بعد أن قدّم خلاصة لهذا الدرس: «وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يجوز فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقلاً كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرّك»^(٢). ويفسّر اختلاف الغائتين من هذا الدرس لدى الشيخين أشياء، منها: عدم تطرق سيبويه إلى تلك المسائل التشكيلية، وعدم ذكره الذلاقة والإصمات، وبيان قواعد مجاورة الحروف

(٥٣) انظر: العين للخليل، ١/٤٧.

(٥٤) انظر: الكتاب، ٤/٤٣٦.

وغيرها. على أنهما اتفقا على أهم المسائل التي ترد عادة في علم الأصوات النطقي من بيان المخارج ودرجات الانفتاح وصفات النطق، وما يلحق بذلك من مسائل تمهيدية مهمة كجهاز النطق ومادة الصوت.

لكن أبرز ما توضح لدى الخليل وغاب عن درس سيبويه تقسيم الأصوات إلى صحاح وعلل، ووصف المخارج انطلاقاً من أسماء أعضاء جهاز النطق. والصحاح عند الخليل لها أحياز ومدارج (أي هي الصوامت نفسها)، على حين أن العلل أو الجوف لا تنسب إلى شيء من الأحياز أو المدارج أو المخارج، إنما تنسب إلى الجوف والهواء^(٥٤). لكن لا يمنع من أن تختلف مجاريها وتباين مبادئها، فيكون لكل منها حيز متدرج^(٥٥). ولا نجد لدى سيبويه أثرًا للألقاب المجموعات المخرجة كالحلقية واللوية - لم يذكر اللهاة أصلاً - والشجرية والأسلية والنطعية والثوية والذلقية والشفهية والجوفية أو الهوائية. ويقطع إبراهيم أنيس بأن هذه المصطلحات ليست للخليل، إذ لو كانت له لكنا وجدناها لدى سيبويه. وكأن سيبويه نقل كل شيء ذكره الخليل لسبب أو لغير سبب^(٥٦). وهناك مجموعة من الأوصاف الواردة لدى الخليل كالنصاعة والهشاشة وضخامة الجرس والكزازة وغيرها لا ترد عند سيبويه. أما اختلافها في عدد المخارج فليس من المتيسر القطع

(٥٥) انظر: العين، ٥٧/١ - ٥٨.

(٥٦) انظر: العين، ٥٧/١ - ٥٨، وقارن بتذكرة النحاة لأبي حيان الأندلسي، تحقيق عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى ١٩٨٦، ص ٢٩.

(٥٧) انظر: أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٠٧ - ١١٢، وقارن بكتابي: أصالة علم

الأصوات عند الخليل، ص ٤٣.

بشأنه برأي حاسم لعدم توقُّر الأدلة ومسوّغات الاستنتاج. ولذلك فإن ما نسبته ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) إلى الخليل من أنه أورد سبعة عشر مخرجاً ليس عليه دليل^(١). أما اختلافهما في ترتيب المخارج فيكاد ينحصر في موضع واحد. ففي الرواية المستفيضة عن الخليل أنه ابتداءً بالحروف الحلقية ثم اللهوية ثم الشجرية ثم الأسلية، وهنا موضع الاختلاف، إذ ينبغي أن يرد في هذا المكان الحروف الذلقية (ل.ن.ر) وتليها الحروف النطعية فالأسلية فاللثوية فالشفوية. إذن فالأسلية التي حقّها - بناءً على ترتيب سيبويه - أن تكون بعد النطعية وقبل اللثوية تقدّمت وأخذت موقع الذلقية^(٢). لكن رواية أخرى عن الخليل وردت في كتاب تذكرة النحاة تجعل اللام والنون والراء بعد الحروف الشجرية ثم تأتي الحروف الأسلية ثم النطعية ثم اللثوية ثم الشفوية^(٣). ويشير هذا إلى صورة أقرب إلى ترتيب سيبويه، وإلى الدرس الحديث. فسيبويه قدّم النطعية على الأسلية، وهي متقاربة عنده. وقد ذكر ذلك في تضاعيف باب الإدغام إذ يقول: «والطاء والذال والتاء يدغمن كلهنّ في الصاد والزاي والسين، لقرب المخرجين، لأنهنّ من الثنايا، وطرف اللسان، وليس بينهن في الموضع إلا أن الطاء وأختيها من أصل الثنايا، وهن من أسفله قليلاً مما بين الثنايا»^(٤). أما الدرس الحديث فجمع بين هذه

(٥٨) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٥٩) انظر: كتاب العين، ١/٥٨. ويذكر استكمالاً لما تقدّم أن الخليل أحرّ الذلقية إلى ما قبل الشفوية. فالأسلية عنده حلّت محل الذلقية، على حين أن الذلقية حلّت محل اللثوية.

وانظر: الكتاب لسيبويه، ٤/٤٣٣.

(٦٠) انظر: كتاب تذكرة النحاة، ص ٢٥-٣١.

(٦١) انظر: الكتاب، ٤/٤٦٣، و ٤٥٧-٤٥٨.

الحروف وجعلها في مخرج واحد دعي بالأسناني اللثوي^(٦٢).
ويتفق الشيخان أخيراً على أمر ذي أهمية قصوى، هو انطلاقها من المعطيات الصوتية العربية التي عبّرت عنها بدءاً القراءات القرآنية، وخصائص الكلام الفصيح، والظواهر اللهجية المقبولة، إضافة إلى استنادهما إلى معارف العرب اللغوية في خلق الإنسان لبناء مصطلحات عربية مولدة تخلو خلواً تاماً من أيّ مصطلح دخيل^(٦٣).
فالخليل قصد من بناء معجمه كتاب العين أن تُعرفَ به العربُ في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها، وألا يشذ عنه شيء من ذلك^(٦٤). أما سيبويه فذكر في تضايف باب الإدغام مايقطع بمعرفته بكلام العرب ومستوياته. فهو مثلاً يورد عبارات نحو: «وكله عربي»، و «هي عربية جيّدة»، و «البيان عربي». ونحو «أعرب اللغتين وأجودهما»، و «الأعرب الأكثر الأجود في كلامهم». ونحو «اللغة العربية القديمة الجيدة»، و «الحجازية الجيدة». ونحو «لغة لأهل الحجاز، وهي عربية جائزة»، و «بعض العرب ممن ترضى عربيته» و «يقولها من العرب بنو العنبر»، و «لكن بني تميم أدغموا».. وغير ذلك^(٦٥). ويشهد ماتقدّم كله على أن الدرس الصوتي عند العرب والمسلمين درس أصيل نبع من معطيات حياتهم وجاء وافياً بحاجات حضارتهم الناهضة، ولم يكن فيه أيّ أثر لاقتباس من الحضارات السابقة.

(٦٢) انظر: كتابي، مبادئ اللسانيات، ص ١٠٧.

(٦٣) انظر: كتابي، أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص ٦٦.

(٦٤) انظر: كتاب العين، ١/ ٤٧.

(٦٥) انظر: كتاب سيبويه، ٤/ ٤٥٧ - ٤٨٥.